جهود محمّد بن عبد الرّحمن الدّيسيّ في تعليم النّحو العربيّ من خلال "المشرب الرّاوي في شرح منظومة الشّبراويّ"

الدّكتور / لعبيدي بو عبد الله

كلّيّة الآداب واللّغات.

جامعة سعد دحلب، البليدة. الجزائر

2003
١٤٢٤
جامعة الأندلس
للعلوم والتقنية
Alandalus University For Science & Technology

(AUST)

جهود محمّد بن عبد الرّحمن الدّيسيّ في تعليم النّحو العربيّ من خلال "المشرب الرّاوي في شرح منظومة الشّبراويّ"

لا شكّ في أنّ الجزائر ظلّت محافظة من خلال علمائها على الثّقافة العربيّة الإسلاميّة التي تقبّلتها وانصهرت في بوتقتها منذ الفتح الإسلاميّ، وعبر القرون التّالية له، فحافظت على هذه اللّغة بصلابة نادرة المثيل. أسهمت في إثراء التّراث العربيّ الإسلاميّ بكثير من المؤلّفات والمصنّفات والشّروح والتّعليقات الهامّة.

ومن هؤلاء العلماء الذين تخرّجوا من زاوية "الهامل" ببوسعادة بالجنوب الجزائريّ الشّيخ "محمّد بن عبد الرّحمن الدّيسيّ"، الذي أحاول أن أقدّمه في هذا المقال من خلال قراءة في كتابه المخطوط في النّحو التّعليميّ بعنوان: "المشرب الرّاوي في شرح منظومة الشّبراويّ".

وأمّا الهدف فهو معرفة مكانته في مجال الدّراسات النّحويّة _وهو الفقيه والشّاعر والنّاقد_ وطريقته في تعليم النّحو وتيسيره، على الرّغم من قلّة انتشار مؤلّفاته بين المتّعلمين اليوم.

أولاً : ترجمة المؤلّف:

١- نسبه :

هو محمّد بن محمّد بن محمّد بن عبد الرّحمن بن محمّد الطّيّب بن عبد القادر بن أبي القاسم بن محمّد بن سيدي إبراهيم الغول[١] الدّيسيّ، نسبة إلى قرية "الدّيس" بـ "بوسعادة".

٢- مولده ونشأته :

لقد أجمعت جميع المصادر على أنّ تاريخ ميلاده كان عام ١٢٧٠هـ الموافق عام ١٨٥٤م، بالدّيس[٢]. وقد أجمعت أيضًا على أنّه نشأ يتيمًا[٣]. إذ مات والده بعد أيّام قليلة من ميلاده، فتربّى في حجر والدته السّيّدة خديجة بنت محمّد الخرشيّ وعمّته السّيّدة عائشة وجدّته.

ولقد أدخلته والدته إلى الكُتّاب في قريته، ولمّا وصل إلى سورة المدّثّر أصيب بالجدريّ فكفّ بصره، وكان ذلك في السّنة السّابعة أو الثّامنة من عمره[١]. فأتمّ حفظ القرآن سماعًا، وأتقن أحكامه بقراءة السّبعة ومخارج الحروف[٢].

ثمّ انتقل إلى زاوية "ابن أبي داود" بجبل "زواوة" (تيزي وزّو). وأجيز من مشايخها، وأذن له بالتّدريس. ثمّ انتقل إلى "قسنطينة" فحضر دروسًا لبعض المشايخ هناك. ثمّ رجع إلى بلده معتكفًا على حفظ المتون العلميّة[٣].

---

(1) _ هدية العارفين، أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين: إسماعيل باشا البغداديّ، وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهيّة، استانبول، ١٩٥٥م: ٢/ ٣٩٩.

(2) _ تعريف الخلف برجال السّلف: أبو القاسم محمّد الحفناويّ، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م: ٢/ ٤٠٧. معجم المؤلّفين: عمر رضا كحالة، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د ت: ١٠/ ١٣٣. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى منتصف القرن العشرين: عادل نويهض، المكتب التّجاريّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م: ١٥٦. الدّيسيّ، حياته وآثاره وأدبه: عمر بن قينة، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، د ت: ١٣.

(3) _ المصادر السّابقة الصّفحات نفسها.

(1) _ الدّيسيّ: ١٦، ٢٥.

(2) _ تعريف الخلف: ٢/ ٤٠٧.

(3) _ الدّيسيّ: ١٦.

وبعد ذلك انتقل إلى زاوية "الهامل"، وسنّه ٣٣ عامًا، وأخذ عن مؤسّسها الشيخ "محمّد بن أبي القاسم"[٤] (ت١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م)، ولازمها بحكم عاهة فقد البصر تلميذًا ثمّ أستاذًا[٥].

٣- علمه وعمله:

لقد كان "الدّيسيّ" أنبغ تلاميذ الزّاوية. فنال إعجاب شيخه، فقرّبه واستعان به للتّدريس في المعهد مثلما استعان بابن أخيه "محمّد الحاجّ" و"عاشور الخنقي"[٦]. وكان ينوبه وينهض بالأعباء معه إلى أن توفّي فتولّى هو مشيخة الزّاوية[٧].

وقد عرف "الدّيسيّ" برزانته واتّساع علمه، ممّا أدّى إلى انتشار مؤلّفاته بين تلاميذه ومعاصريه[٨].

وقد أورد "أبو القاسم سعد الله" في تاريخه الثّقافيّ بأنّ دروس "الدّيسيّ" وشيخه كانت من الدّروس العالية[٩]. وليس أدلّ على نبوغه وتمكّنه حفظه[١٠] من المتون نحو الخمسين متنًا منها:

---

(4) _ ترجمته في تعريف الخلف: ١/ ٣٤٥- ٣٥٢. نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة: محمّد عليّ دبوز، المطبعة العربيّة، الجزائر، ط١، ١٩٦٩م. ١/ ٥٦- ٧٨. معجم أعلام الجزائر: ١٧٦. تاريخ الجزائر الثّقافيّ: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٨م. ٣/٢١٨- ٢٢٢، ٤/ ١٥٩- ١٦٧.

(5) _ تاريخ الجزائرّ الثّقافيّ: ٧/ ٧٣.

(6) _ كان "الدّيسيّ" على خلاف مع "عاشور"؛ ترجع أسبابه إلى تفضيل "عاشور" الأشراف _ولو عصاة_ على غيرهم في كتابه "منار الأشراف"، وقد ردّ عليه "الدّيسيّ" بكتاب "هدم المنار وكشف العوار"، وهجاه بأشعار ضاعت. ينظر: الدّيسيّ: ٥٠- ٥٦، ٢٣٩- ٢٤٣. تاريخ الجزائر الثّقافيّ: ٨/ ٢١٢، ٧/ ٧٣.

(7) _ ينظر: نهضة الجزائر: ١/ ٤٣.

(8) _ تاريخ الجزائر الثّقافيّ: ٣/ ٢٢٠- ٢٢١.

(9) _ المصدر نفسه: ٣/ ٢٢٢.

(10) _ قال "الديسي" في إجازة "محمّد بن الحاجّ محمّد": [رجز]

و قد أجـــــزته بما رويتُ وما حفظته وما قـــــرأتُ
من العلوم والفنون النّافـعهْ ذات الفوائد الغزار السّاطعهْ
في الفقه والحديث والتّفسيرِ وفي فنـــــون الأدب الشّهيرِ
وفي الأصول و الكلام الشّـافِي والمنطق، العَروض و القوافِي
وفنّ تجويد وعلـــــم القومِ ودعوات ليلها واليـــــــومِ

ينظر: أشعار: محمّد بن عبد الرّحمن الدّيسيّ، مخطوط، المكتبة الوطنيّة، الجزائر، رقم: ٣٢٣٣: ٤٥ [و].

الشّيخ خليل، وبعض متن الرّسالة، والعاصميّة، والتّلمسانيّة والرّحبيّة، وجمع الجوامع في الأصول، والآجروميّة، والأزهريّة والقطر والشّذور والألفيّة، ومتن الجوهر المكنون في الثّلاث فنون، ومختص السّعد، ومنظومة ابن الشّحنا، ورسالة الدّردير، والسّمرقندية في الاستعارات، والسّنوسية في التّوحيد والجوهرة، ومتن بدء الأمالي ومتن الخريدة، والجزائريّة. وفي المصطلح متن غرامي صحيح، والبيقونيّة ومنظومة الصّبّان، وألفيّة العراقيّ. وفي الصّرف متن البنّا ومتن لاميّة الأفعال. وفي المنطق السّلّم ومتن إيساغوجي. وفي الوضع رسالة الوضع للعضد. وفي الحكمة المقولات العشر. ومتن آداب البحث للشّيخ زين المرصفيّ. وفي العروض متن الكافي ومتن الخزرجيّة ومتن الصّبّان، وفي التّجويد متن الجزريّة وتحفة الأطفال والشّاطبيّة، وفي المديح النّبويّ متن بانت سعاد والبردة والهمزيّة والبغداديّة ومنظومة البرزنجي في المولد، ودلائل الخيرات في الصلوات وغير ذلك. ومن العلوم الشرعيّة: الصّحاح السّتّ وبعض تفاسير القرآن الكريم، والقسطلانيّ ومختصر خليل وشرحه للدّردير، مع استحضار ما في الشّروح الأخرى وحواشيها [1].

وقد كان "الدّيسي" متخلّقًا بالأخلاق الرّائقة علمًا وعملاً.[2]

٤- شيوخه :

من بين ما وقفت عليه من شيوخ "الدّيسيّ": الشّيخ محمّد الصّدّيق، بن بلقاسم بن عروس، حمدان لونيسي، دحمان بن السّنوسيّ، محمّد ابن أبي القاسم الهامليّ، عبد الحيّ الكتانيّ.

٥- تلاميذه :

إضافة إلى مؤلفاته التي تلقّاها الكثير بتقدير كبير _وسيأتي بيانها_ فقد تخرّجت على يديه أجيال من العلماء، خلال ٣٠ عامًا قضّاها في التّدريس. وكان لهؤلاء

(1) _ تعريف الخلف: ٢/ ٤٠٧- ٤٠٨.

(2) _ المصدر نفسه: ٢/ ٤٠٧.

المتخرّجين دور في ميادين منها: الإمامة والقضاء والإفتاء والتّدريس منهم: محمّد العاصميّ (ت ١٨٨٨هـ)، أبو القاسم الحفناويّ بن الشيخ (ت ١٩٤٢هـ) ... وغيرهم[٣].

٦- وفاته :

قضى "الدّيسيّ" حياته متعلّمًا ومدرِّسًا وأديبًا وشاعرًا وناقدًا إلى أن توفّي فجر يوم ٢٢ من ذي الحجّة سنة ١٣٣٩ هـ، الموافق يوم ٢٧ أوت سنة ١٩٢١م، تاركاً آثارًا طبع القليل منها، وبقي المخطوط منها عند الأفراد والمكتبات.

٧- مصنّفاته :

لقد خلّف "الدّيسيّ" عدّة مؤلّفات في مختلِف المعارف والتّخصّصات: في الفقه واللّغة والأدب والنّحو والبلاغة والنّقد والعقائد والفلسفة والمنطق وعلم الكلام والتّصوّف والتّاريخ، وديوان شعر، وبعض الرّسائل والمقامات. وقد تميّزت بلون خاصٍّ في التّأليف والشّرح وتناول المادّة العلميّة ومعالجتها من ناحية، وبأنّها تحمل سمة عصر اصطبغت فيه مؤلّفات العلماء بصبغة التنوّع والتعدّد. وقد يساعد هذا الأمر على تهيئة فرصة ملائمة للباحثين والدّارسين _في جميع التّخصصات- في تأمّل منهج كلّ عالم من هؤلاء، و"الدّيسيّ" على الخصوص، من حيث عرضه للمادّة العلميّة، ومنهجه في التّأليف، وفكره الابستمولوجيّ، ونظريّاته الفلسفيّة والدّينيّة والتّربويّة، والاستفادة من كلّ هذه الجوانب في سبيل الوصول إلى دراسة تحقّق مطالب العصر، وتلبّي حاجة من يهتمّ بالعلم. وهذا بيان لما أمكنني حصره من مصنّفاته مرتّبة على حروف الهجاء:

أ) التّآليف والشّروح:

١) "إفحام الطّاعن بردّ المطاعن"[١]: ردّ على بعض أصحاب الزّوايا والتّصوّف.

٢) "بذل الكرامة لقرّاء المقامة"[٢]: شرح لرسالة "المناظرة بين العلم والجهل".

٣) "تحفة المحبّين بشرح أبيات القطب الأكبر محي الدّين"[٣]: شرح لأربعة أبيات شعريّة.

---

(3) _ لم تذكر المصادر التي وقفت عليها قوائم شيوخه وتلاميذه على حدة، وما ذكرته هنا فهو ممّا وجدته مبثوثًا فيها. ينظر مثلاً: تعريف الخلف: ٢/ ٣٣٩. تاريخ الجزائر الثّقافيّ: ٣/ ١٠٠. الدّيسيّ: ٢١.

(1) _ الدّيسيّ: ٤٣.

(2) _ المرجع نفسه: ٧٤.

(3) _ المرجع نفسه: ٧٧.

٤) "تفضيل البادية بالأدلّة الواضحة البادية"[٤]: مقامة قام هو نفسه بشرحها، تصيّد فيها مفردات لغويّة وتلميحات أدبيّة وتاريخيّة.

٥) "تنوير الألباب بمعاني الشّهاب"[٥]: شرح ٨٩٠ حديثًا شريفًا.

٦) "توهين القول المتين"[٦]: ردّ على كتاب "القول المتين" لقاسم بن سعيد الشّماخي الذي ادّعى ضعف المذاهب الأربعة.

٧) "جواهر الفوائد وزواهر الفرائد"[٧]: مختارات في النّحو والفقه والأدب والبلاغة والنّقد والتّاريخ والفلسفة والتّصوف والشّعر.

٨) "الحديقة المزخرفة في حواشي القهوة المرتشفة". في نحو الجمل.

٩) "درّة عقد الجيد في عقائد علم التّوحيد"[٨]: منظومة في التّوحيد تقع في ٦٢ بيتًا.

١٠) "الزّهرة المقتطفة"[٩]: منظومة في الجمل النّحوية، تقع في ٤٥ بيتًا.

١١) "السّاجور للعادي العقور عاشور"[١]: ردّ على الشّيخ عاشور عندما عاب طريقته في التّدريس، ولم يهتمّ "الدّيسيّ" به بعد أن قال رأيه في عاشور في كتابه "هدم المنار".

١٢) "سلّم الوصول إلى علم الأصول"[٢]: منظومة في النّحو، تقع في ٩٩ بيتًا.

١٣) "شرح البديعيّة"[٣]: شرح لقصيدة "البديعيّة" في مدح محمّد بن أبي القاسم الحسنيّ.

١٤) "شرح الرّجز الكفيل بذكر عقائد أهل الدّليل"[٤]: شرح لمنظومة في التّوحيد لشعيب بن عليّ الجليليّ التّلمسانيّ (ت١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، وتقع في ٥٥ بيتًا.

١٥) "العقيدة الفريدة"[٥]: منظومة في التّوحيد، تقع في ٣٥ بيتًا، تضمّنها ديوانه.

---

(4) _ معجم أعلام الجزائر: ١٥٦. الدّيسيّ: ٢٧.

(5) _ المرجع نفسه: ٧٧.

(6) _ المرجع نفسه: ٦١.

(7) _ المرجع نفسه: ٢٩.

(8) _ المرجع نفسه: ٧١. وينظر: معجم أعلام الجزائر: ١٥٦.

(9) _ الدّيسيّ: ٤٨. وينظر: معجم أعلام الجزائر: ١٥٦.

(1) _ الدّيسيّ: ٤٩.

(2) _ المرجع نفسه: ٧٢. معجم أعلام الجزائر: ١٥٦.

(3) _ الديسيّ: ٧٧. ووردت في تعريف الخلف: ٢/ ٤٠٨. ومعجم أعلام الجزائر: ١٥٦. بعنوان: "تحفة الإخوان".

(4) _ الدّيسيّ: ٧٨. وذكره في تاريخ الجزائر الثقافي: ٧/ ١٥٢ بعنوان: "شرح الكلمات الشّافية في شرح العقيدة الشعيبيّة الجليلة الكافية".

١٦) "فتح العلاّم في شرح صلوات القطب عبد السّلام"[٦]: شرح لنصّ دعاء.

١٧) "فوز الغانم في شرح ورد سيّدي بلقاسم" [٧].

١٨) "القصد في الفصد"[٨]: رسالة أجاب فيها عن سؤال حول التّلقيح.

١٩) "القهوة المرتشفة في الزّهرة المقتطفة"[٩]: شرح لمنظومة الزّهرة المقتطفة في النّحو.

٢٠) "المشرب الرّاوي في شرح منظومة الشّبراويّ"[١٠]: شرح لمنظومة الشّبراويّ في النّحو، وتقع في ٥١ بيتًا.

٢١) "المناظرة بين العلم والجهل"[١١]: عبارة عن جدل تصوّر الكاتب حدوثه بين العلم والجهل.

٢٢) "منّة الحنّان المنّان"[١٢]: ديوان يشتمل على مائتي قصيدة ومقطوعة.

٢٣) "الموجز المفيد في شرح درّة عقد الجيد"[١٣]: شرح على منظومته "درّة عقد الجيد" في العقائد.

٢٤) "النّصح المبذول لقرّاء سلّم الوصول"[١٤]: شرح لمنظومة "سلّم الوصول" في الفقه.

٢٥) "هدم المنار وكشف العوار"[١]: ردّ على كتاب "منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف".

٢٦- "الوردة الجنيّة في النّظم للخصائص الفقهيّة"[٢]: منظومة في خصائص الرّسول ﷺ، تقع في ١٤ بيتًا.

---

(5) _ الدّيسيّ: ٧٢. معجم أعلام الجزائر: ١٥٦.

(6) _ الدّيسيّ: ٨٢.

(7) _ المرجع نفسه: ٨٠.

(8) _ المرجع نفسه: ٧١.

(9) _ تعريف الخلف: ٢/ ٤٠٨. معجم المؤلّفين: ١٠/ ١٣٣. أعلام الجزائر: ١٥٦. الدّيسيّ: ٨٠.

(10) _ تعريف الخلف: ٢/ ٤٠٨. أعلام الجزائر: ١٥٦. الدّيسيّ: ٨٠.

(11) _ الدّيسيّ: ٣٨- ٣٩.

(12) _ المرجع نفسه: ٣٢. تاريخ الجزائر الثّقافيّ: ٨/ ٢١١.

(13) _ تعريف الخلف: ٢/ ٤٠٨. الدّيسيّ: ٧٩. تاريخ الجزائر الثّقافيّ: ٧/ ١٥٣ .

(14) _ الدّيسيّ: ٧٩. أعلام الجزائر: ١٥٦

(1) _ الدّيسيّ : ٤٩.

(2) _ المرجع نفسه: ٧٣.

ب) الرّسائل:

- رسالة لابن باديس[٣]: أجابه بها عن رأيه في الشّهادة بواسطة التّليفون.
- أربع رسائل للحفناويّ[٤]:

الأولى: أجاب بها عن سؤال حول تراجم لبعض علماء النّاحية.

الثّانية: في الموضوع نفسه حول تراجم بعض علماء الجنوب.

الثّالثة: أجاب عن مسائل فقهية.

الرّابعة: عبارة عن تهنئة لأبي القاسم محمّد الحفناويّ بمناسبة صدور الجزء الأوّل من كتابه "تعريف الخلف برجال السّلف" مقرّظا له بقصيدة.

- رسالتان لعبد القادر بن إبراهيم المسعديّ[٥]:

الأولى: يذكر فيها تراجعه عن دعوته إلى حبّ المدينة وتفضيلها، ويبدي شوقه وحنينه إلى البادية.

والثّانية: ردّ على جواب "المسعديّ"، وهي أطول من الأولى، ناقش فيها آراء صاحبه مداعبًا إيّاه من خلال العبارة والتّلميح.

- رسالة في سيدي نايل[٦]: في تاريخ ومناقب رئيس "أولاد نايل" وأماكنهم وفروعهم.

---

(3) _ المرجع نفسه: ٤١، ٢١٩.

(4) _ المرجع نفسه: ٤٢، ٢١٩. تعريف الخلف: ٢/ ٤٠١- ٤٠٩.

(5) _ الدّيسيّ: ٤٠، ٢١٢.

(6) _ تاريخ الجزائر الثّقافيّ: ٧/ ٤٤٨- ٤٤٩.

ثانياً : كتاب المشرب الرّاوي في شرح منظومة الشّبراويّ:

١- القيمة العلميّة للكتاب :

إنّ هذا الكتاب من أهمّ مصنّفات "الدّيسيّ" النّحويّة[٧]؛ ولعلّ ذلك يعود إلى سهولة مادّته العلميّة، وطرافة أسلوب تناولها وحسن سبكها وصياغتها. إلى جانب اهتمام المؤلّف بمسائل لطيفة، قلّما يلفت إليها أصحاب المطوّلات الانتباه فضلاً عن أصحاب المختصرات، إضافة إلى أنّه شرح أجاد الشّبراويّ نظمها بشهادة "الدّيسيّ" نفسه، ولا أدلّ على ذلك من كثرة شروحها، على أنّ كثرة الشّروح لا تدلّ على الصّعوبة بقدر ما تدلّ على أهمّيّة المشروح؛ بل كثيرًا ما رفعت الشّروح المتون إلى مراتب عالية. وهذا كلّه جعل "الدّيسيّ" يشرحها ويقدّمها في أوضح صورة وأبسط وجه؛ لتكون في متناول المبتدئين للفهم والحفظ، والمتمرّسين للتبصّر والاستئناس.

هذا التّلاقح المشرقي المغربي كشف لنا عن فكر منهجيّ ضارب في أصول النّظريات الحديثة، مبنيًّا في أساسه على تحديد المفاهيم والمصطلحات كلّها بدون استثناء لأنّها مفاتيح العلوم، وعلى نقد الآراء وتمحيصها والتّعقيب عليها بشكل منهجيّ دقيق.

ولم يجد "الدّيسيّ" ضرورة في أن يضع عليه شرحًا آخر، وهو المعروف بوضع الحواشي على مصنّفاته كما فعل في "الزّهرة المقتطفة" التي شرحها بـ"القهوة المرتشفة" ثم وضع عليها حاشية "الحديقة المزخرفة".

لهذا أظنّ أنّه لولا تلك المسحة من السّهولة والبساطة والوضوح التي تبدو على ملامح كتاب "المشرب الرّاوي" لكان له شأن آخر عند "الدّيسيّ" وعند تلاميذه من بعده، وفي مجال الدّرس النّحويّ التّعليميّ على العموم. ممّا يظهر لنا في غير إبهام أنّ الشّرح قد بلغ أهدافه التي حدّدها "الدّيسيّ" في بداية الكتاب، حيث قال: «...يتمّم فوائدها، ويوضح مقاصدها؛ لينتفع بها من عني بها من صغار أولاد المؤمنين[١]».

---

(7) _ قال "الديسيّ" في إجازة الشّيخ محمّد بن الحاجّ محمّد: [رجز]

وما لنا من منح القيّوم من سائر المنثور و المنظوم

كالفوز والموجز والمقتطفه والمشرب التّحفة والمزخرفه الأشعار: ٤٥ [و]

(1) _ المشرب الرّاوي في شرح منظومة الشّبراويّ: محمّد بن عبد الرّحمن الدّيسيّ، مكتبة زاوية الهامل، ونسخة في مكتبة عامر محفوظي، الجلفة: ٣.

ولا شكّ في أنّه وصف كتابه بهذه الأوصاف حتّى يتفادى خطر التّقليد، أو قد يكون ذلك مدحًا لنفسه خرج مخرج التّحدّث بالنّعمة والنّصح لقارئ الكتاب.

٢- منهج الدّيسيّ في شرحه:

١ - المنهج الفنّيّ:

لا يمكننا القول بأنّ "الدّيسيّ" كانت له الحرّيّة المطلقة في اختيار طريقة عرض عناصر المادّة النّحويّة، بل إنّ تقسيم عناصرها جاء مطابقًا لما رسمه المصنِّف سابقًا، فهو يتتبّع ما جاء في المنظومة بابًا بابًا وبيتًا بيتًا.

ولم يمنعه العقد المبرم مع الشّبراويّ في بداية شرحه من أن يطوّف بقارئه دون تطويل ولا تمحّل، أو يقطف له من روض النّحو زهورًا، عطرها اللّمحة الدّالة والمنهل القريب والشّاهد الواضح.

فكان له فضل توضيح المصطلحات كلّها، وبيان الأوجه النّحويّة والنّكت البلاغيّة، والتّمثيل لما يستوجب ذلك، والفوائد التي يحيل عليها متى دعاه إلى ذلك داعي الإحساس بملل القارئ من دسامة المادّة المعروضة. فجاء شرحه على نحو ما يلي:

أ) عنوان الكتاب: المشرب الرّاوي في شرح منظومة الشّبراويّ[1]. وقد أورده بهذا العنوان الحفناويّ في "تعريف الخلف"[2] وعادل نويهض في "معجم أعلام الجزائر"[3].

ب) خطبة الشّرح: أبان فيه الغرض من وضعه هذا الشّرح مرجعًا ذلك إلى سببين رئيسين هما:

- قيمة منظومة الشّبراويّ الفنّيّة والعلميّة.
- عدم وصول شروحها إليه وإلى تلاميذه.

وأمّا الأهداف التي رسمها فهي:

- أهداف تعليميّة: تتمثّل في "تتميم الفوائد"، و "توضيح المقاصد" ليتمّ استيعابها وحفظها.

---

(1) _ قال في خطبة الشّرح: «...وسمّيته بالمشرب الرّاوي في شرح منظومة/ الشّبراويّ...».

(2) _ تعريف الخلف: ٢/ ٤٠٨.

(3) _ أعلام الجزائر: ١٥٦.

- انتشارها بين النّاشئة على غرار انتشار "المقدّمة الآجروميّة".

ج) مقدمّة: شرح فيها البسملة وأعربها ثمّ بيّن أهمّيّتها في بداية النّصوص.

وقد قسّم كتابه إلى خمسة أبواب:

الباب الأوّل : في الكلام وما يتألّف منه:

عرّف فيه علم النّحو لغةً واصطلاحًا، وذكر موضوعه وفائدته وواضعه وفضله ونسبته واسمه وحكمه.

ثمّ عرّف الشّارح الكلام عند النّحاة واللّغويّين والفقهاء والمتكلّمين، وبيّن أجزاءه وعلامات كلّ جزء. وفي الحديث عن العلامات وقف عند تعريف الاسم والفعل والحرف لغة واصطلاحا، وصور تركيب هذه الكلمات، وكذلك توقّف عند علامات كلّ جزء حسبما ذكره النّاظم.

الباب الثّاني: في الإعراب اصطلاحًا:

عرّف الإعراب لغة و اصطلاحًا، ثمّ تحدّث عن أنواعه وما ينوب عنه، ومواضع كلّ نوع على حدة.

الباب الثّالث : في مرفوعات الأسماء:

وهذا الباب أكبر أبواب الكتاب، فقد تناول فيه الشّارح تعريف المرفوعات وسبب تقديمها على المخفوضات والمنصوبات. وبدأها بالفاعل، وثنّى بنائب الفاعل، ثمّ المبتدأ. ثمّ بحث النّواسخ.

الباب الرّابع : في منصوبات الأسماء:

لقد اشتمل هذا الباب على شرح منصوبات الأسماء السّبعة عشر:

بدأها بالمفعول المطلق، ثمّ المفعول فيه(ظرف الزّمان والمكان)، والمفعول معه والمفعول له واسم لا النّافية للجنس. والمنادى، والحال(المفرد والجملة)، والتّمييز وأقسامه، الاستثناء، وأتمّ شرح بقيّة المنصوبات بذكر كان واسم إنّ والتّوابع الخمسة.

وعلى الرّغم من تشعّب هذه المباحث في الكتب النّحويّة وغزارة مادّتها إلاّ أنّ "الدّيسيّ" في هذا الباب استطاع في شرحه أبيات المنظومة أن يسقي تلاميذه بالقدر الذي يرويهم تطبيقًا للهدف المرسوم والعهد المأخوذ.

الباب الخامس: في مخفوضات الأسماء:

شرح في هذا الباب المخفوض لغة واصطلاحًا، وذكر عوامل الخفض وأقسامه.

- **تقويم المنهج :**

بعد أن عرضت منهج "الدّيسيّ" في هذا الجانب نريد أن نتلمّس بعضًا من البواعث التي حدت به لانتهاج مثل هذا الأسلوب في شرح عناصر المادّة النّحويّة، وطريقة ربطه لها مع بعضها بعضًا، بحيث جاءت خالية من العناوين إلاّ عناوين الأبواب أو التّنبيهات. وذكر خصائصه الفكريّة التّعليميّة أثناء الشّرح.

لقد سبق أنّ "الدّيسيّ" لم تكن له الحرّيّة المطلقة في تفريع المادّة إلى أبواب خمسة أو اختيار مواضيعها الأساسيّة، إلاّ أنّ له ذلك وهو أمام الأبيات الخمسين في أن يشرحها حسب الأهداف التي يراها مناسبة. كأن يقف عند أيّ نقطة يكشف من خلالها الغامض من المسائل والعويص من الألفاظ.

ويمكن القول بأنّ ما يميّز "الدّيسيّ" أثناء الشّرح هي الذّهنيّة الرّياضيّة. وتتمظهر في تقسيمه بعض المسائل إلى عناصر وكلّ عنصر إلى لأقسام فرعيّة.

أو من خلال ما يضعه من تنبيهات وفوائد وخواتم عقب انتهائه من كلّ مسألة. وقد بلغ تعداد ذلك ٣٥ تنبيهًا و٤ خواتم وخلاصة وفائدة. حتّى ولو طال ذلك منه، ثمّ يعود ليكمل ما بدأ شرحه. بالإضافة إلى استحضار ألفاظ المنظومة واستذكار ما أشار إليه أو ما سيوضّحه.

وكذا اعتماده على الاحتمالات الواردة في شرح ألفاظ المنظومة بشرط أن تخدم المادّة النّحوية، كما في قوله عن "وزيد بالوشاة بلي": «يحتمل عندي أن يقرأ: وزيد_ بكسر الزّاء_... والتّقدير وزيد على ما تقدم... ويحتمل أن يقرأ: وزيد _بفتح الزّاء وسكون الياء_ فيكون اسمًا مرفوعًا..». وقوله: «والجدل _بالدّال المهملة_ الخصام، ويصحّ أن يقرأ بالمعجمة ومعناه الفرح». أو قوله: «ويحتمل أن تكون على بابها إشارة إلى انحطاط رتبة الحرف».

هذا وإنّ تأثّره بالفكر الرّياضيّ والمنطقيّ يتجلّى في استخدام مصطلحات العلمين مثل: «الاستغراق _ الاستقراء _ حاصل ما يمنع _ حاصل المقام _ ويجمعها _ واحترزنا _ اشتمال _ وبالجملة _ والأربعة من العشرة ...».

وأمّا طريقته في الشّرح فإنّها وإن كانت موافقة لبعض شروح الألفيّة والآجروميّة والأزهريّة مثل: "شرح الأزهريّ للآجروميّة" أو "تمرين الطّلاب في صناعة الإعراب "المعتمد على الإعراب فقط. أو موصل الطّلاب "شرح قواعد الإعراب" لابن هشام المعتمد على شرح الألفاظ شرحًا لغويًّا أو اصطلاحيًّا. فلم تكن غرضًا لالتزام كلٍّ شارح من هؤلاء بالمتن.

وأمّا "الدّيسيّ" فقد تميّز بشرح كلّ الألفاظ الهامّة (الكلمات المفاتيح) في البيت شرحًا معجميًّا ثمّ اصطلاحيًّا عند النّحاة والفقهاء و المتكلّمين بلغت خمسين لفظة، فضلاً عن شرح باقي الكلمات وإعراب ما اقتضى إعرابه، والتّعقيب على المسائل النّحويّة واستدراك ما أغفله النّاظم... إلخ، دون أن يتوانى عن التّطرق للجانب البلاغيّ والفقهيّ مثلما سبق ذكره.

لذلك يمكن اعتبار كتاب "المشرب الرّاوي" نموذجًا يكشف لنا عن فكر "الدّيسيّ" وطريقته في تعليم النّحو، لم يكن فيه التّجديد الشّكليّ أو الهيكليّ في نموذج شرح المادّة النّحويّة بقدر ما كان يريد توصيل المادّة إلى الرّاغبين في معرفة أبواب النّحو الأساسيّة على غرار صاحب النّظم.

في حين بقي منهج الدّراسة النّحويّة عند "الدّيسيّ" على ما كان عليه عند سابقيه. وهو ما سيأتي بيانه.

٢ - المنهج العلميّ:

أ) المصطلح:

لقد استخدم "الدّيسيّ" في شرحه مصطلحات عديدة للبصريّين، ولم يكن يلزم نفسه بذلك، فقد استعمل في بعض الأحيان المصطلحات الكوفيّة.

فقد استعمل مصطلح الخفض والجرّ، وفرّق بينهما في قوله: «ويتميز الاسم أيضًا ما عداه بالجر وهو والخفض واحد، إلاّ أنّ الجرّ عبارة البصريّين والخفض عبارة

الكوفيّين» . كما استعمل مصطلح "الأسماء الخمسة" و"الأسماء السّتّة"، و"لا النّافية للجنس" و"لا التّبرئة"... إلخ.

كما استخدم العديد من المصطلحات البلاغيّة ناهزت٣٨ مصطلحًا[1]، والمصطلحات الدّينيّة ربت عن ٢٦ مصطلحًا.

ب) الاستشهاد:

- القرآن الكريم :

كثر الاستشهاد بالآيات القرآنيّة، فقد بلغت مواضع الاستشهاد بها نحوًا من ستّ وثلاثين موضعًا، وهذا العدد ليس بالقليل إذا ما قيس بحجم الكتاب؛ وهذا ناتج عن الثّقافة الدّينيّة المتشبّع بها صاحبه، واهتمامه بالقرآن أفصح كلام عربيّ، وهو أمر يعطي الكتاب أهميّة خاصّة. وقد أخلّ "الدّيسيّ" بذكر أصحاب القراءات.

- الحديث الشّريف :

ندر الاستشهاد بالحديث النّبويّ لدى "الدّيسيّ" في كتابه، واتّبع في ذلك سلف النّحاة الذين قلّما يستشهدون بالأحاديث متذرّعين بأنّ كثيرًا من الأحاديث رويت بالمعنى.

والجدير بالذّكر أنّ الأحاديث التى ذكرها _وهي خمسة_ لم يستدل بها على صحّة القاعدة النّحوية، وإنّما ذكرها تماشيًا مع منهجه في شرح المفردات، ودعم الفكرة الرّامي إليها عند استطراده. قال في حديثه عن البسملة: «وعملاً بقوله ﷺ: «كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أقطع»[2]، وقال في حديثه عن النّظر: «...والسّلامة للعرض والدّين في التّباعد عن الحمى، وفي الحديث الصّحيح :.. كالرّاعي يرعى حول الحمى...[3]» .

(1) _ يفنّد هذا ما ذهب إليه "بن قينة" من أنّ الطّلبة المبتدئين لا يتاح لهم فرصة الكشف عن المسائل البلاغيّة. وأنّ البلاغة _بزعمه_ شيء كماليّ أو ترف عقليّ. ينظر: الدّيسيّ: ٨٤.

(2) _ المشرب: ٥.

(3) _ المصدر نفسه: ١١٢.

- **الأمثال :**

لم يول "الدّيسيّ" الأمثال اهتمامًا في مجال الاستشهاد، وأمّا استشهاده بمثلين فيبدو أنّه على سبيل التّنويع من النّصوص ليس غير، بدليل أنّه أوردهما في موضع واحد متتابعين، إضافة إلى أنّ لهما نفس المضرب.

ويبدو أنّ "الدّيسيّ" أراد أن يكون شرحه معتمدًا في مجال الاستدلال بالشّواهد القرآنيّة والشّعريّة بحكم ثقافته الدّينيّة والتّكوينيّة كما هو منتشر عند الشّرّاح في وقته.

- **الشّعر :**

لقد حفل "المشرب الرّاوي" بشواهد شعريّة بلغت ٥٩ شاهدًا بما فيها الأراجيز التّعليميّة. والشّارح لا ينسب الأبيات إلى قائليها إلاّ إذا تعلّق الأمر بنظم نحويّ، كما لا يتقيّد بذكر البيت كاملاً، فقد يكتفي بشطر حيث موضع الشّاهد، بل قد يكتفي بكلمة، قال بعد تعريف الكلام: «قول المصنّف: (قال علي) من تتمّة التّعريف؛ لأنّنا أخذنا منه الإفادة والقصد، وليس تمثيلاً بعد تمام التّعريف كما قيل في قول ابن مالك: "كاستقم"[1]». وقال في حديثه عن حروف الجرّ: «وواو ربّ كقوله: "وليلٍ كموج البحر"[2]».

ج) طريقة التّمثيل:

إنّ اهتمام "الدّيسيّ" بالتّمثيل في شرحه واضح في كتابه؛ لأهمّيّته في توضيح القاعدة النّحويّة؛ إذ له من تسهيل الاستيعاب أثناء العمليّة التّعليميّة والاسترجاع فيما بعد ما لا يخفى.. ويظهر اهتمامه بها جلياً من خلال تعليقه على أمثلة المنظومة، في قوله: « ... وأشار إلى أمثلتها مرتّبًا لها على ترتيب اللّف، فللّه درّه فقد أجاد...». ولذهابه _كما سبقت الإشارة_ مذهب القائلين بأنّ المثال جزء من التّعريف، ورغم اعتماده على أمثلة المنظومة وشرحها كما هي، وعلى الأمثلة الواردة في النّصوص المستشهد بها فإنّ ما أورده من أمثلة ليس بالعدد اليسير، فلقد بلغ تعدادها ٣٢٢ مثالاً، وهي موزّعة حسب الجدول التّالي:

---

(1) _ المصدر نفسه: ٢١.

(2) _ المصدر نفسه: ١١٥.

رقم الباب	١	٢	٣	٤	٥
عدد الأمثلة	٥٩	٩٨	٨٤	٦٥	١٧

وأمّا عن طريقته في التّمثيل : فقد اعتمد في توضيح القواعد على عدّة طرق:

منها ذكر القاعدة ويمثّل لها مباشرة وهي الغالبة مثل حديثه عن روابط الخبر في قوله: «وهو واحد من الأربعة: الأوّل الضّمير نحو: زيد قام أبوه، والثّاني: اسم الإشارة نحو: (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (3))[٤]».

وقد تنعكس العمليّة فيستنتج القواعد بعد عرض الأمثلة كما في قوله: «...واستفيد من هذا المثال والمثالين السّابقين أنّ الخبر يأتي مفردًا وظرفًا ومجرورًا».

أو يذكر عدّة عناصر ثمّ يأتي بالأمثلة على طريقة اللّفّ والنّشر المرتّب نحو قوله: «فللكسرة ثلاثة مواضع: الاسم المفرد المنصرف أي المنوّن، وجمع التّكسير المنصرف، وجمع المؤنّث السّالم... نحو: مررت بزيد ورجال ومسلمات».

وقد يجمع بين أسلوب اللّفّ والنّشر المرتّب وبين الدّمج بغية الاختصار، قال بعد تقسيم الضّمائر إلى قسمين: قسم للحاضر وقسم للغائب: «... ويجب مطابقة أخبار هذه المبتدآت إفرادًا وجمعًا وتذكيرًا وتأنيثًا، نحو: أنا مؤمن ونحن مؤمنون وأنت مؤمن...، وهو مسلم وهي مسلمة وهما مسلمان...» فواضح أنّ الأمثلة متعلّقة بكلا القسمين. ومثل هذا التّمثيل لا يحتاج إلى مزيد تمعّن لدى المتعلّم، بل تتّفق مع ما يتميّز به الشّرح من التّوضيح والتّبسيط.

ويمكن تصنيف هذه الأمثلة بحسب وضعها إلى ثلاثة أقسام:

أ) أمثلة منقولة من الكتب النّحويّة، مثل:

- ضرب زيد عمرًا.
- بحسبك درهم.
- لا تأكل السّمك وتشرب اللّبن... إلخ.

---

(3) _ الأعراف: ٢٦.

(4) _ المصدر نفسه: ٦٩.

ب) أمثلة دالّة على الثّقافة الدّينيّة، مثل:

- جلست فوق المنبر.
- صمت يوم الخميس.
- صلّيت وسلّمت على أحمد... إلخ.

ج) أمثلة دالّة على الحالة النّفسيّة والاقتصاديّة، مثل:

- قول الأعمى: "يا رجل خذ بيدي".
- أمسى الفقير في إطمار.
- كان الشّيخ شابًّا... إلخ.

د) التّعليل :

لقد اهتمّ "الدّيسيّ" بتعليل القواعد والآراء التي اعتمدها والمصطلحات التي وظّفها اهتمامًا كبيرًا. والتّعليل عنده يعتمد على الواقع اللّغوي، والأصول التي توصّل إليها عن طريق استقراء بعض العلل النّحوية، كما في قوله: «وسمّيت أفعال القلوب لقيام معانيها بالقلب؛ لأنّها ترجع إلى معنيين: الظّنّ والعلم، وكلّ منهما محلّه القلب»، وقوله: «وسمّي مفرّغًا؛ لأنّ ما قبل "إلاّ" تفرّغ للعمل فيما بعدها...».

وقد يعتمد أحيانًا على الإجماع والعقل، كما في قوله: «ولا رابع لها بإجماع من يعتدّ به ودليل الحصر».

وكذا اعتماده على المنطق في تعليله الفرق بين مصطلحي "الجزء" و"القسم"، بقوله: «لأنّ الشّيء يتركّب من أجزاء وينقسم إلى أقسام». وإنّ اعتماده على مثل هذه التّعليلات نابع _مثلما سبقت الإشارة إليه_ من تصوّره المنطقيّ وذهنيّته الرّياضيّة، ولا أدلّ على ذلك من تعليله عدم دخول الجزم والجرّ على الفعل بذكر صورة من المعادلات الرّياضيّة، وذلك في قوله: «وإنّما كان الفاعل ثقيلاً لأنّ مدلوله مركّب وهو الحدث والزّمن، وكان الجرّ ثقيلاً لأنّه حركة، فأعطوا الخفيف للثّقيل والثّقيل للخفيف [للتعادل]».

وكثيرًا ما يعلّل مخالفة النّاظم لقاعدة نحويّة أو قياس صريحٍ، فيرجعها إلى الضّرورة الشّعريّة، كقوله: «والقياس خمسة _بالتّاء_ وحذفها ضرورة».

ولا يجد "الدّيسيّ" حرجًا من التّصريح بعدم وجود العلل، قال في حذف ياء (يدي): «فحذفت الياء اعتباطًا أي تخفيفًا لا لعلّة»، وأشار في موضع آخر: «فلا تطل في البحث عن علّة بنائها لأنّه الأصل فلا يسأل عنها».

هـ) عرض الأقوال وشرحها:

زخر كتاب المشرب الرّاوي بأقوال كثيرة، نسب الشّارح قسمًا منها إلى أصحابها، مشيرًا في البداية كقوله: «قال في المختصر:...»، و«كما عرّفه السّيّد السّنوسيّ في مقدّماته..»، أو محيلاً في الأخير، مثل: «أفاد في الإتقان..» و«انتهى قطر النّدى بزيادة»، و«أفاده العلاّمة خالد».

وترك الباقي دون نسبة إيجازًا واختصارًا، أو اكتفاءً واستغناءً، من ذلك قوله في باب المنصوبات: «ولا النّافية للجنس وتسمّى لا التّبرئة»، وهذه تسمية ابن هشام في المغني.

ويذكر المشهور من الآراء دون ترجيح واضح، قال في "سوى" : «المشهور في "سوى" أنّها اسم كـ"غير" ومذهب سيبويه ومن تبعه أنّها منصوبة على الظّرفية ولا تخرج عنها إلاّ للضّرورة».

أو يذكر ترجيح من سبقوه من النّحاة كقوله: «يجوز في نحو "هند" و "دعد" من الثّلاثي المؤنّث ساكن الوسط المنع وعدمه، والمنع أحسن كما في الخلاصة».

والجدير بالملاحظة أنّ أقوال ابن هشام قد أخذت الحظّ الأوفى من "المشرب الرّاوي"، فقد بلغت المواضع التي أشار فيها إلى تعاريفه أو آرائه وأقواله أو لم يشر وقد ضمنها شرحه ما يناهز ٣٤ موضعًا، وذلك اهتمام واضح يبيّن منزلة ابن هشام عند "الدّيسيّ" ومعاصريه.

دون أن نغفل الإشارة إلى عرضه للآراء الدّينيّة والبلاغيّة، فقد درج "الدّيسيّ" عند تعريف مصطلح بلاغيّ إلى آراء صاحب المختصر (سعد الدّين التّفتازانيّ) على استعمال عبارة: "جاء في المختصر"، أو "كما في المختصر"، وقد أغفل ذلك في ثلاث مواضع:

الأوّل: عند تعريف مصطلح التّطويل ، والثّاني: تعريف مصطلح "الحشو"، والثّالث: مصطلح "الإيجاز". وأمّا الأقوال الدّينيّة فيوردها استطرادًا عند شرح الكلمات كإيراده قولاً من " الحكم العطائيّة" أو من "السّنوسيّة" في التّوحيد أو من "مقدّمات السّنوسيّ" أو شرحهما.

هذا ولم يكن هدف "الدّيسيّ" في كتابه الإكثار من الاستشهاد بالأقوال والآراء، ناهيك عن الأشعار والأرجاز، وإنّما انصبّ هدفه في شرحه المنظومة على القدر الذي يتمّ به الكشف عن غامض المسائل، وينقل به أقصى فائدة إلى المتعلّمين بأسلوب علميّ وفق البرامج التّعليميّة المتّبعة آنذاك. ولا بدّ هنا من بيان جوانب من خصائص أسلوبه.

و) أسلوبه :

لا يمكننا إدراك أسلوب "الدّيسيّ" اللّغويّ في كتابه "المشرب الرّاوي" حتّى وإن انفلت من بين يدي بيت النّاظم، ليعلّق ويدقّق، مرسلاً العبارات تلو العبارات.

وربّما كانت خطبة الكتاب الوجيزة بمثابة لوحة مصغّرة عن أسلوبه اللّغويّ أو بمثابة التّرحيب في أوّل الطّريق بكلّ متعطّش لمعرفة أبواب النّحو الأساسيّة، يقول للقارئ: مسلكي واضح، ومائي عذب، فإن عقدت العزم على المعرفة المبسّطة فعليك بـ "المشرب"، فإنّك لا تظمأ فيه ولا تضحى، لأنّ أسلوبه علميّ ولغته ميسورة.

ويمكن أن نلاحظ أنّ الاستطراد سمة عامّة في الكتاب، لا يكاد "الدّيسيّ" يتركه إلا لحاجة داعية، وغالبًا ما تكون هذه الحاجة وضوح عبارة، أو سبق إشارة، وإلاّ فإنّه يستطرد لذكر ما لم يذكره النّاظم، وذلك مثلما فعل حين ساق أقسام الفعل، أو عندما ذكر الممنوع من الصرف، أو ذكر الأوجه الصّرفية لبعض الكلمات، أو الاختلاف النّحويّ لبعض القراءات، أو توضيح معنى بلاغيّ، أو استحضار شاهد شعريّ أو نكتة دينيّة أو دعاء للابتهال. ويعترف هو نفسه بذلك، ويرجع سببه إلى توصيل الفائدة كما في قوله: «وذكرنا هذا الطّرَف اليسير وإن كان مخرجًا عن غرض الاختصار؛ حرصًا على إيصال الخير لقلوب أولاد المؤمنين».

ولم يكن هذا مخلاً بعناصر الموضوع لامتلاكه ذاكرة تساعده على الرّجوع إلى البيت المشروح مهما طوّف بقارئه، مثلما يحدث عند إعرابه العبارات البالغ عددها ٦٥

عبارة إعرابا تامًّا. وهذا ما يجعله يستعمل في كثير من الأحيان أسلوب الاعتراض، مثل قوله:«والقسم الثّالث _وهو الباقي من الأفعال_ ...»، وقوله: «ومثال المصدر _ويجب أن يكون مضافًا إلى الاسم_ كونك عاملاً بعلمك سعادة...»، وهو المعروف في نثره الفنّيّ بقصر الجمل وتوازن العبارات[1].

أو اعتماده على أسلوب المناظرة والجدل كقوله: «فإن قلت لا يبدأ بالبسملة، قلت: نهي السّلف عن ابتداء الشّعر بها محمول عند العلماء على شعر غير العلم...».

ونجده أحيانًا يكبح جماح الشّرح إذا علم أنّ الموضوع ثقيل على كاهل المتعلّم، مشكل عليه، أو سبقت الإشارة إليه، كما في قوله: «وتمثيلها ظاهر للمتعلّم فلا نطيل به»، وقوله: «والإعراب بيِّن فلا نطيل به» وقوله: «وهذا ما أمكن جلبه من حروف الجرّ وإلاّ فهي كثيرة تبلغ عشرين كما في الخلاصة» و«ولهذا الباب أحكامٌ تُطلَب من المطوّلات». و«وإعرابه على نحو ما تقدّم»...، وقد بيّن لنا سبب ذلك بقوله: «...خوف السآمة، ولئلاّ يطول الشّرح».

وهذا ما أدّى إلى وضوح عباراته وبلوغ مراده وهجومه على المعنى، وإيفائه الحدّ الأدنى من المعنى المطالب بتوصيله إلى دارس النّحو على أكثر تقدير، مستعملاً في ربطه بين العبارات من بيت إلى آخر لفظ "أي" في ١١٦ موضعًا، ولفظ "وأشار" في ٧٦ موضعًا، ولفظ "يعني"_ وما في معناه_ في ٤٠ موضعًا؛ ممّا يشدّ السّامع لتتبّع باقي أبيات المنظومة.

هذا ما يمكن لي إيراده حول تحديد بعض خصائص أسلوب الشّارح اللّغويّ. والكتاب بشكل عامّ حسن الدّلالة، سهل المادّة، جيّد التّوضيح، لم يتكلّف فيه صاحبه، وهو المعروف في نثره الفنّيّ باستخدام المحسّنات البديعيّة، وإنّما ترك فيه العِنان لزخمه المعرفيّ، فشرح المنظومة بعفويّة دونما اعتناء بالغ، فجاء شديد التّبسيط، بعيد الفائدة.

ويمكنني في الأخير أن أسوق جملة من النّتائج، وهي كما يلي:

---

[1] _ الدّيسيّ: ٢٤٨.

١) يعدّ "الدّيسيّ" واحدًا من العلماء الذين كرّسوا جهودهم لطلب العلم وبثّه بين الطّلاب، رغم صعوبة الفترة التي عاش فيها (نهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠)، التي شهدت فيه الجزائر أحداثًا عظيمةً واضطرابات كثيرة، بدءًا بالاحتلال الفرنسيّ سنة ١٨٣٠م، ثمّ بالمقاومات التي حدثت هنا وهناك، وما انجرّ عنها من تغييرات أثّرت على الواقع الذي كان يعيشه المجتمع الجزائريّ سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا في ذلك الوقت.

٢) إنّ ارتباط الجزائر بالمشرق ثقافيًّا تمثّل في هجرة الطّلبة إلى تونس ومصر والشّام، إثر تجميد الاحتلال الحياة الثّقافيّة، فعرف التّعليم تدهورًا وانحطاطًا في المستوى وتقلّصًا في عدد المراكز التّعليميّة، ولم يبق إلاّ الزّوايا مركزًا يهرع نحوه المتعطّشون إلى الثّقافة العربيّة والإسلاميّة، ومن بين هذه الزّوايا زاوية الهامل ببوسعادة جنوب الجزائر، التي كان لها بالغ الأثر في تنوير عقل "الدّيسيّ" وأمثاله من طلبة العلم.

٣) إنّ برامج التّعليم التي كانت سائدة هي نفسها البرامج القديمة للدّراسات العربيّة الإسلاميّة، المرتكزة على حفظ القرآن الكريم ومتون الحديث ومختلف المنظومات التّعليميّة، ومنها منظومة الشّبراويّ في النّحو.

٤) لقد اتّبع "الدّيسيّ" في شرحه طريقة تعليميّة فعّالة، ومنهجًا متميّزًا من حيث تبسيط المادّة التي حوتها مختلف كتب النّحاة الأول وكذلك المتأخّرين، وذلك بحسن التّعليل والتّمثيل وتحديد مفاهيم المصطلحات ودلالات الألفاظ.

٥) إنّ العديد من مؤلّفات الجمّ الغفير من العلماء اللّغويّين المغاربة الأوّلين والمتأخّرين تدلّ على أنّه كان لهم باعٌ طويلٌ في علوم اللّغة لا سيما علم النّحو، فقد كانوا أهل اعتناءٍ شديدٍ به. واحتفاؤهم بالنّحو شديد، وكثرت تصانيفهم فيه، وزاحموا المشارقة في هذه الصّناعة.

المصادر والمراجع:

أ)المطبوعة:

- تاريخ الجزائر الثّقافيّ: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٨م.
- تعريف الخلف برجال السّلف: أبو القاسم محمّد الحفناويّ، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الدّيسيّ، حياته وآثاره وأدبه: عمر بن قينة، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دت.
- معجم المؤلّفين: عمر رضا كحالة، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، دت.
- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى منتصف القرن العشرين: عادل نويهض، المكتب التّجاريّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة: محمّد عليّ دبوز، المطبعة العربيّة، الجزائر، ط١، ١٩٦٩م.
- هدية العارفين، أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين: إسماعيل باشا البغداديّ، وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهيّة، استانبول، ١٩٥٥م.

ب) المخطوطة:

- أشعار: محمّد بن عبد الرّحمن الدّيسيّ، مخطوط، المكتبة الوطنيّة، الجزائر، رقم: ٣٢٣٣.
- المشرب الرّاوي في شرح منظومة الشّبراويّ: محمّد بن عبد الرّحمن الدّيسيّ، مخطوط، مكتبة زاوية الهامل، ونسخة في مكتبة عامر محفوظي، الجلفة.